﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ [الحجر: 12 - 13]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

العلاقة بين مناوأة الرّسل، والإجرام بتكذيب الهدى الّذي هو سببٌ للهلاكِ

لَمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ الأممَ السابقة قد تواردت على تكذيب الرُّسل واختيار طريق الضّلال؛ جاءت هذه الآية؛ لتبيِّن أنَّ سنَّة اللّه فيهم أنْ سلكَ الاستهزاء والتَّكذيب في قلوبِهم بسبب إجرامِهم وتلقّيهم الحقَّ بالسُّخريَّة[1].

وأيضًا لَمّا كانت قلوبُ أهلِ الضَّلال موصوفةً بالضّيقِ والحَرج، كان الدّاخلُ إليها لا يدخل إلّا بغايةِ العسرِ، فلذلك قال جوابًا لمن كأنَّه قال: أهذا خاصٌّ بهؤلاء؟ فقيل: لا، بل ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[2]، فهم لا يؤمنون به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾: أصلُ (سلك): يَدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ، والسَّلْكُ، بِالفَتْحِ: مَصْدَرُ سَلَكْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ فانْسَلَك، أيْ: أدْخَلْتَه فيهِ فَدَخَلَ، وكلُّ شيءٍ أدْخَلْتَهُ في شيءٍ؛ فقد سَلَكْتَه فيه، واللّه يُسْلِكُ الكفّارَ في جَهَنَّمَ، أيْ: يُدْخِلُهُمْ فيها، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريق، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقه، قالَ تعالى: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح: 20]، والسِّلْكُ: الخُيُوطُ، الواحِدَةُ سِلْكَةٌ، وجَمْعُه سُلوكٌ[3]، و﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ بمعنى: نُدْخِلُهُ[4]. والمرادُ منه: شدَّةُ وُقوعِ الفِعْلِ ونفاذه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/23.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/27.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلك).
(4) أبو حيان، تحفة الأريب، ص: 166.

2) ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ مِن الجَرْم، وهو: القَطْعُ[1]، وقيل أصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أهْلِهِ، أيْ: كاسِبُهُم، ومنه سُمّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِهِ[2]، والإجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْمِ، وهوَ الإثْمُ العَظيمُ[3]، يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا، أو جَنَى جِنايَةً[4]. والجُرْمُ والجَريمَةُ: الذَّنْبُ والإثْمُ، والإجرامُ أيضًا: إلصاقُ الجَريمَةِ بالآخرين، ويأْتي بِمعنى الاعْتِداءِ والظُّلْمِ، فيُقال: أجْرَمَ في حَقِّ أخيه، أيْ: ظَلَمَهُ، واعْتَدَى عليه، والمُجْرِمُ في اصْطِلاحِ القُرْآنِ هوَ الكافِرُ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩﴾ [المطففين: 29]، والمقصود بالإجرام في الآية: الكُفر، والمراد بالمجرمين: كُفّارُ قُرَيْشٍ.

3) ﴿خَلَتْ﴾: أصلُ الخُلُوِّ: الفَراغُ، يُقال: خَلا المَكانُ، يَخْلو، خُلُوًّا وخَلاءً: إذا لم يَكُن فيهِ أحَدٌ، ولا شَيْءَ فيه، ويُقال: مَكانٌ خالٍ، أيْ: فارِغٌ[5]. وخَلا مكانُهُ: ماتَ، ومَضَى، والقُرونُ الخاليَةُ: الماضيَةُ[6]. ويأْتي الخُلُوُّ بِمعنى الانْفِرادِ، تَقول: خَلا الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ، أيْ: انْفَرَدَ بها[7]. والمقصود بالخلوِّ في الآية: ما مضى من الزَّمان.

4) ﴿سُنَّةُ﴾: أصْلُ كَلِمَةِ السُّنَّةِ مِنَ السَّنِّ، وهوَ جَرَيانُ الشَّيْءِ في سُهولَةٍ، يُقالُ: سَنَنْتُ الماءَ على وجْهي أسُنُّهُ سَنًّا؛ إذا أجرَيْته، ومِمّا اشْتُقَّ مِنْهُ السُّنَّةُ، وهيَ السّيرَةُ، وسُنَّةُ رَسولِ اللّه ﷺ: سيرَتُهُ[8]، والسُّنَّة: الطَّريقَةُ حَميدَةً كانَتْ أمْ ذَميمَةً[9]، سُنَّةُ الرَّجُلِ: طَريقَتُهُ، والجَمْعُ سُنَنٌ، وكُلُّ مَنِ ابْتَدَأ شَيْئًا، ثُمَّ عَمِلَ بِهِ غَيْرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَهوَ الَّذي سَنَّهُ، واسْتَنَّ بالشَّيْءِ: عَمِلَ بِهِ[10]، والمقصود بالسُّنَّةِ في الآية: العادَةُ المَألوفَةُ.

5) ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: هم السّابِقونَ المُتَقَدِّمونَ في الزمان أو الحال أو الفضل والمنزلة،

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).

(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/210.

(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (خلو).

(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (خلى، خلو).

(7) ابن منظور، لسان العرب، والفيّومي، المصباح المنير: (خلو).

(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سنّ).

(9) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سنن).

(10) سعدي أبو جيب، القاموس الفقهيّ لغة واصطلاحا، ص: 183.

والـمُرادُ هُنا: الأُمَمُ الَّتي سَبَقَتْ، وعَرَفوا أَخْبارَهُم، فَلَقوا عَذاب الاستئصال، مِثْلَ عادٍ وثَمودَ، وهذا تهديدٌ لكفّار مكَّة[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإجـرام متَّصل الـحـلـقـات، بـعـضـها آخـذٌ بحُجز بعض

كما دخل الكفر في قلوب الأمم السابقة بالاستهزاء بالرسل وتكذيبهم، كذلك نفتِنُ قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر باللّه وتكذيب رسوله[2]، فقد أنزلنا الكُتُبَ على الرُّسل من قبلُ، فبلَّغوا الرسالات حتى طرقت معانيها بَواطِنَهُمَ، وأدخلناها في قلوبِ أولئك المجرمين المستهزِئينَ برسلِهم، فلم يؤمنوا بها، فهم يسمعونَه، ويفهمونَه، ويعلمونَ أنَّه الحقُّ، ومع ذلك يُكذِّبونَ به[3]، ولا يُصَدِّقون بالذكر الذي أُنزل، وقد مضت سنَّة اللّه في الأولين التي لا تتخلَّف بإهلاك المجرمين الذين كذَّبوا رسلَهم، وهؤلاء مِثْلهم، فسَيَهْلِك المستمرون منهم على الكفر والتكذيب[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة مجيء الآية على طريق الاستئناف البيانّي:

تَـوارُدُ الأُمَـمِ على تـكـذيب الـرُّسل بسببِ إجرامِهم

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وكان قد يخطر في أذهانِ المخاطَبين سؤالٌ ناشئ من هذه الآية، مفاده: كَيْفَ تَوارَدَتْ هَذِهِ الأُمَمُ عَلَى طَرِيقٍ واحِدٍ مِنَ الضَّلالِ، فَلَمْ تُفِدْهُمْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ ﷺ كَما قالَ تَعالَى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٥٣﴾ [الذاريات: 53]، فلمّا كان الأمر كذلك؛ جاءت هذه الآية؛ لتبيِّنَ أنَّه من فعلِ اللّه تعالى بسببِ إجرامهم[5].

(1) الواحديّ، الوسيط: 3/40، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/70، والبغويّ، معالم التنزيل: 3/51، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 262.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/125، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/148.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/91، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 262.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23.

دلالة التّعبير بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في السّياق الكريم:

التّشبيه المركّب من بليغ الأساليب

لَمّا كان لفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مفيدًا التَّشبيه على أمرٍ قد سبق أو أمرٍ حاضرٍ في ذهنِ المخاطَبِ؛ كان اسم الإشارة الذي للبعيد (ذلك) للتَّعبير عن المشبَّه به الذي يكون مركَّبَ الصّورةِ والمعنى، فأوجز معناه التَّركيبي في لفظٍ واحدٍ، وجعله مشبَّهًا به، ثم ذكر المشبَّه، فيكون هذا التَّركيب من قبيل التَّشبيه المركَّب.

بلاغة التَّشبيه في: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾:

مُقابَلَةُ النَّظِيرِ بالنَّظير، لإقامة الحجّة، ولتحقيق الإذعان على المحجّة

لَمّا كان المشبَّه به هو اسم الإشارة، والمشار إليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هوَ السَّلْكُ المَأْخوذُ مِنْ ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾؛ كان التشبيه بتقدير: مِثْلَ سَلْكِ الكتب المنزَّلة على الأمم الماضية حين أُلْقِيَتْ عليهم من الملأ الأعلى، نَسْلُكُ الذِّكرَ في قلوب المجرمين من مشركي مكة وفي قلبِ كلِّ مجرم لا يؤمن بالله، وبأنَّ القرآن من عنده سبحانه، أو التَّقدير: مِثْلَ سَلْكِ الاستهزاء والتَّكذيب بالرُّسل الذي سلكناه في قلوب شيع الأولين، نَسْلُكُ الاستهزاء والتَّكذيب، أيْ: نَجْعَلُه ونُدْخِلُهُ، ففي الكلام إبْطالٌ لِاسْتِهْزائِهِمْ عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ بِنُظَرائِهِمْ مِنَ الأُمَمِ السّالِفَةِ[1]، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون المعنى: مِثْلَ سَلْكِ التَّصديق في قلب مَنْ صَدَّقَ رسولَ الله، واختاره؛ نسلك التكذيب في قلب من اختار التكذيب وكذبه، أو المعنى: مِثْلَ الذي سلكنا في قلوب المؤمنين، من قبول الآيات والحجج، والتصديق لها، لِما علِمْنا أنَّهم يختارون ذلك؛ نسلك في قلوب المجرمين، من تكذيب الآيات والحجج وردِّها، لِما علِمْنا منهم مِنَ الرد والتكذيب لها[2]، وفي هَذا التَّنْظير تَحْقيقٌ لِكُفرِ أهلِ مكَّة المكذِّبين؛ لأجل مقابلة النَّظير بالنَّظير في عدمِ الانتفاع من الكتاب المنزَّل عليهم أو في التَّكذيب والاستهزاء.

(1) الثّعلبيّ الكشف والبيان: 15/432، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/370، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/525، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/22.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

لا يجتمع الإيمانُ والكفرُ في قلبٍ واحدٍ

لَمّا كانَ السَّلكُ هو إدخال الشيء في غيره بدقَّةٍ على معنى النَّفاذِ والامتدادِ حتَّى إصابةِ الهدفِ، كإدخال الخيط في ثقبِ الإبرة، والرمح في المطعون؛ دلَّ على دقَّة السَّلْك في قلوبِ المجرمين وإصابته إصابةً محكمةً بحيث ينفذ في قلوبِهم، وأفادَ التَّعبير بالسَّلْكِ انتفاء إيمانِهم؛ لأنَّه إذا كان التَّكذيبُ قد دخل في قلوبهم دُخولَ الخَيْطِ في المِخْيَطِ، فإنَّه لا يمكن أنْ يجتمعَ والإيمانَ في قلب واحد، فلا يمكن أنْ يؤمنوا بالذكر الحكيم، لامتلاء قلوبِهم بالكفر.

فائدة التَّعبير بنونِ الجمعِ في: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

لا مدافعةَ ولا منازعةَ لأفعال اللهِ، جلّ في علاه

لَمّا كانت النّون للتَّعظيم؛ دلَّ على إظهارِ التَّعظيم لفعلِ اللّه تعالى، للإشعارِ بأنَّ فعلَ اللّه تعالى في سَلْكِ الذِّكر أو التَّكذيب أو غيرِه في قلوبِ المجرمين له أثرٌ قويٌّ كاملٌ فيهم، بِحيثُ لا يستطيعون دفعَه ولا منازعته، فهم مغلوبون مقهورون.

فائدة مجيء صيغة المضارع ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

بيان تعظيم شأنِ الله تعالى، في فعلِه بالمجرمين

أفادت صيغة المضارع استمرار الفعل وتجدُّدَه من مشركي مكَّة في زمنِ نزول القرآن حالًا فحالًا، أيْ: كلَّما تجدَّد نزوله، وسمعوه على القولِ بأنَّ المرادَ سلك الذِّكر، وفيه استحضارُ الصّورة لبيان عظمة اللّه وتعظيم شأن فعله سبحانه؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَقْصودَ بَيانُ طريقةِ تَلَقّي الْمُشْرِكينَ لِلْقُرْآنِ، أيْ: تَجَدَّدَ لِهَؤُلاءِ إبْلاغُ الْقُرْآنِ عَلَى سُنَّةِ إبْلاغِ الرِّسالاتِ لِمَنْ قَبْلَهُمْ، أو المراد استمرار سلك الاستهزاء في قلوبِهم وتجدُّده[1].

دلالة عودِ الضّمير في قولِه: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

الكافر يقرأ القرآن، ولا يَنْتَفِعُ منه لمرضٍ في قلبِه

يَحْتَمِلُ أنْ يكون الضمير في ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائدًا على الذِّكر، وهو

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/126، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/24.

القرآن، ويكون الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائدًا عليه أيضًا، أيّ: لا يصدِّقون به، والمعنى: كذلك نُدْخِلُ الذِّكرَ في قلوب المجرمين، فلمّا تعلَّق في قلوبهم بوصفِ كونِهم مجرمين؛ دلَّ على أنَّ سلكَه يجعلهم مكذِّبين به مستهزئين، أيّ: مكذَّبًا به مردودًا مستهزأ به نُدْخِلُهُ في قلوب المجرمين، أيّ: هَكَذا نولِجُ القُرْآنَ في عُقولِ المُشْرِكينَ، فَإنَّهُمْ يَسْمَعونَهُ، ويَفْهَمونَهُ؛ إذْ هوَ مِنْ كَلامِهِمْ، ويُدْرِكونَ خَصائِصَهُ، ولَكِنَّهُ لا يَسْتَقِرُّ في عُقولِهِمُ اسْتِقْرارَ تَصْديقٍ بِهِ، بَلْ هُمْ مُكَذِّبونَ بِهِ، وبِهَذا السَّلْكِ تَقومُ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِتَبْليغِ القُرْآنِ إلَيْهِمْ، ويُعادُ إسْماعُهُمْ إيّاهُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ؛ لِتَقومَ الحُجَّةُ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون الضمير في نَسْلُكُهُ يعود على الاستهزاء المقتضي للتَّكذيب، فيعود على المصدر المفهوم من الفعلِ في قوله: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، ويعود الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ أيضًا على ذلك بعينه، والباء سببيَّة، أيّ: لا يؤمنون بسببِ استهزائهم[1].

بلاغة الإظهار في موضعِ الإضمار:

سلكُ التَّكذيب والاستهزاء في قلوب الكافرين، بسبب ذنوبِهم واحتيالِهم

كانَ الظّاهرُ أنْ يقول: (كذلك نسلكه في قلوبِهم)؛ لأنَّ السياق في ذكر أهلِ مكَّة المعاندين، فجاء الكلامُ على خلافِ مقتضى الظاهر، لتعليقِ السَّلْكِ بالوصف المشتقِّ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ لبيان سبب الحكم، لِيُفِيدَ أنَّ إدخال التَّكذيب والاستهزاء في قلوبهم بسبب إجرامِهم، أيّ: بما كسبوه من كفرِهم بسبب ذنوبِهم العظيمة واحتيالِهم في كسبِهم، ولمّا كان الاسم المشتقُّ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مأخوذًا من (أجرمَ) الرُّباعي؛ دلَّ على تعدّي أثرِ كفرِهم وذنوبِهم العظيمة واحتيالهم إلى غيرِهم، كما أشْعَرَ أنَّ السَّلْكَ في الأمم الماضية كان بسببِ إجرامِهم كذلك، فبذلك يكونون قد ساروا على سنن الأوَّلين في الإجرام.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/125، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/128، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/24.

فائدة (ال) في قولِه: ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

لَمّا كان المقصودُ من المجرمين أهل مكّة الكافرين؛ عبَّرَ به بصيغة (ال) الجنسيّة، للإشعار بأنَّ المرادَ جنسُ المجرمين؛ لِيُفِيدَ الاستغراقَ، ويَدْخُلَ فيه أهلُ مكَّة دخولًا أوَّليًّا[1].

سـلـكُ الـلـهِ الـتَّـكـذيـب، يستغرق قلوبَ جميعِ المجرمين

الإشعارُ بالمقابلةِ فيما يجعل في القلوب:

في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، لَمّا علَّق إدخال التَّكذيب والاستهزاء في قلوب المجرمين؛ أشْعَرَ الكلامُ بالمقابلة، أيْ: من حكم المعنى المذكور أنْ يسلك التّصديق في قلب من صدَّق بالرَّسول، واختاره، فيزداد إيمانًا مع إيمانِه[2].

كما يسلك اللهُ الـتَّـكـذيـب في قلـوبِ المجرمين يسلك التَّصديق في قلوبِ المؤمنين

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

جاء في هذه السّورة قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وفي سورة الشعراء: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠﴾ [الشعراء: 200]، فذكر في هذه السورة الفعل بصيغة المضارع ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾، وفي سورة الشعراء بصيغة الماضي ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾ [الشعراء: 200]، ووجه ذلك، أنَّه تقدم في آية الحِجْرِ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾، وهو قول العُتاةِ من كفار قريش وغيرهم الذين عُنوا بقولِه تعالى تهديدًا ووعيدًا: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، ولم يتقدم في هذه السورة إخبارٌ بحال غيرهم من مكذِّبي الأمم سوى التعريف بأنَّ كلَّ قرية أُهلِكَتْ فبأجل معلوم، فحال هؤلاء كحال من تقدمهم، فجاء بالفعل المضارع؛ ليدل على استمرارِ الأمر، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾، وأمّا آية الشعراء؛ فقد تقدَّمها ذكر أقوام الرُّسُلِ من الأمم المكذبين، فلمّا تقدم أمرُها وقعت العبارة بالماضي، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

من براعة نظم القرآن، مناسبَةُ كلِّ لفظ لسياقه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/69.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425.

﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ [الشعراء: 200]، ولم يناسب في سورة الشعراء غير الماضي، فقد وضح ورود كل من الموضعين على ما يناسب[1].

فائدة التَّعبير بـ﴿لَا﴾ النّافية في السّياق:

مناسبة المبالغة في نفي الإيمانِ، لمعنى السَّلْك في قلوبِ المجرمين

عُبِّرَ بـ﴿لَا﴾ النّافية؛ لأنَّها أكثرُ مبالغةً في النَّفي من غيرِها، وهو المناسب للفظ السَّلْك.

بلاغة العموم بحذف المتعلِّق:

إفادة العموم لتكثير المعنى

يَحْتَمِلُ أنْ يكون الكلامُ بتقدير: وقد خلت سنَّة الأولين بالتكذيب بعد قيام الحُجج، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون المعنى: وقد مضت سنَّة الأوَّلين بالإهلاك فيمَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ مِنَ الأُمَمِ الخاليَةِ، عند مكابرة حُجَجِ اللّه، والظّاهر أنَّ متعلِّقَ الفعلِ ﴿خَلَتْ﴾ أفادَ العمومَ، بمعنى عموم ما جرى في سنَّة الأوَّلين من تكذيب فريقٍ وإيمانِ فريقٍ آخر، ومن إظهار المكابرة والمعاندة مع التَّكذيب بعد ظهور الحُجَجِ والآيات لفريقٍ وإظهار الانقياد لفريقٍ آخر، ومن إهلاكِ الكافرين المكذِّبين وتخليصِ المؤمنين الصّادقين[2].

بلاغة التَّعريض بكفّار مكَّة ومن لفّ لفّهم:

إنذار المجرمين بحلولِ العذاب بهم إنْ أصرّوا على إجرامِهم

لَمّا كان الخبر في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أمرًا معلومًا، ليس فيه فائدةٌ متجدِّدة؛ دلَّ على أنَّ الخبر مستعملٌ في لازمه، فيكون المراد من ذكرِ الطريقةِ التي سنَّها اللّه في إهلاكهم حين كذَّبوا رُسُلَهُمْ، وكذَّبوا بالذِّكر المنزَّل عليهم؛ هو الوعيد لأهل مكَّة على تكذيبهم وتخويفهم وتهديدهم، ففيه تَعْرِيضٌ بكفّار مكَّة وبكلِّ مَنْ يتَّصف بوصف المجرمين من أهل التَّكذيب والاستهزاء بِرُسُلِ اللّه بِأنَّ في ذَلِكَ إِعْذارًا لَهُمْ وتنبيهًا لحلولِ العذاب بهم، كما حلَّ

---

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/290.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425، والماورديّ، النّكت والعيون: 3/150، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/370، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/127.

فيمن كان قبلَهم، ولمّا كان الحرف ﴿وَقَدۡ﴾ للتَّأكيد والتَّحقيق؛ أفاد تأكيدَ الوعيدِ، والتَّعريضَ بالإعذار والإنذار(1).

دلالة الإضافة في قوله: ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الاعـتـيـادُ على الـشَّيءِ يجعله سُنَّةً لصاحبِه

إضافةُ ﴿سُنَّةُ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إمّا أنْ تكونَ لأدنى مُلابَسَةٍ، فهي باعْتِبارِ تَعَلُّقِها بِهِمْ، للإشعار بأنَّ هذه هي عادتهم التي ألفوها في التَّكذيب والاستهزاء، وإنَّما هيَ سُنَّةُ اللّه فيهِمْ؛ لِأنَّها المَقْصودُ هُنا، وإمّا أنْ تكون من الإضافة إلى المفعول بتقدير سنَّة اللّه في الأوَّلين، وحذف الفاعل في المعنى لظهوره، وللتَّنبيه على أنَّها صارت سنَّة منسوبةً إليهم لإلفِهم لها(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(السَّلْك) و(الإدخال):

السَّلْك هو نفوذ شيءٍ في شيءٍ، والإدخـــال هو الإيـــلاج، وهـو نقيض الإخراج

عُبِّرَ بالسَّلْك دونَ الإدخال، للفرق بينهما: فالسَّلْك هو نفوذ شيءٍ في شيءٍ على وجهِ الدِّقَّة والسُّرعة ويكون بامتدادٍ حتَّى إصابةِ الهدف، ويكون السَّلْكُ في موضعٍ خفيٍّ، حتّى يصلَ إلى الهدف الدّقيق المَسْلَكِ اللّطيفِ المَوْرِدِ(3)، ولهذا يقال: سَلَكَ الخَيْطُ في الإبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزّمر: 21]، أيّ: فأدخله في الأرض، وأسكنه فيها بنفاذ ودقَّةٍ وامتداد، وأمّا الدّخول؛ فهو الولوج، أيّ: هو نقيض الخروج، ويُستَعْمَلُ في المكان والزمان والأعمال، فيكون السَّلْكُ أخصَّ من الدُّخولِ؛ لدلالتِه على النُّفوذ بدقَّةٍ وسرعة وامتدادٍ حتَّى إصابةِ المقصودِ.

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/25.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/208، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/128، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/25.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللغّة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلك)، (دخل).